

المجتمع المعاصر وسيطرة التقنية عند هيربرت ماركيز

Contemporary society and the dominance of technology according to Herbert Marcus

دغبا فاطمة^{*1} قواسمي مراد²

¹ جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم/الجزائر fatima.deghbadj.etu@univ-mosta.dz

² جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم/الجزائر fatima.deghbadj.etu@univ-mosta.dz

تاريخ الاستقبال: 2024/08/29؛ تاريخ القبول: 2025/06/30؛ تاريخ النشر: 2025/10/08

الملخص:

إن الهدف من هذا البحث هو كيف كانت القراءة النقدية التي قدمها ماركيز لواقع المجتمع المعاصر؛ والذي فيه إشارة واضحة لحجم الأزمة التي يعيشها الإنسان المعاصر الآن، فالبعد الواحد هو عنوان هذه الأزمة لأنها أزمة الحضارة المعاصرة "حضارة التقنية". فهو الفيلسوف الذي أراد إبراز حقيقة الإنسان في المجتمع المعاصر في ظل التقدم العلمي الكبير، فعوض أن يوصل هذا الأخير الإنسان إلى السعادة قام عكس ذلك؛ بتعزيز السيطرة عليه خاصة في ظل هذا المجتمع، والذي اكتشف ماركيز بأن هناك مرضا قد أصابه بشقيه الرأسمالي والاشتراكي اسمه مرض "البعد الواحد"، المرض الذي قزم الإنسان وجعله مجرد أداة في يد التقنية وحوله إلى حيوان منتج مستهلك بالدرجة الأولى. فما سيوضحه هذا البحث هو كيف ساهم ماركيز في تأسيس عقلانية جديدة تتجاوز النقائص التي سببتها سيطرة التقنية وسيطرة المجتمع المعاصر وبالأخص الاستعمال السلبي للعقل، وهل استطاع انقاذ الإنسان من هذه السيطرة، ومن كل هذا هل بإمكان الواقع أن يتغير بعدما أصبحت التكنولوجيا هي محرك التغيير والمعرفة وقودها؟

الكلمات المفتاحية: المجتمع التكنولوجي، التقنية، العقل الأدائي، الإنسان ذو البعد الواحد

Summary: the aim of this research is what was the critical reading of that Marcus presented of the reality of contemporary society, which is a clear indication of the crisis that modern man is experiencing now. One dimension is the title of this crisis of contemporary civilization of technology. He is the philosopher who wanted to highlight the truth of man in contemporary society in light of the great scientific progress. Instead of the latter leading man to happiness, he did the opposite, strengthening control over him, especially in light of this society. Marcus discovered that there was a disease that had afflicted him with both its capitalist and socialist sides, called the disease. One-dimensional, the disease that has dwarfed man and made him a mere tool in the hands of technology, which has turned him into an animal that is primarily a producer and consumer. What this research will explain is how Marcuse contributed to establishing a new rationality that transcends the shortcomings caused the shortcomings caused by the control of technology and the control of contemporary society, especially the negative use of reason, and was he truly able to rescue man from the grip of this control, and from all of this, can reality change after technology has become the engine of change ? knowledge is its fuel. mmmary :

. **Keywords:** Technological society, technology, instrumental mind, one-dimensional man.

1/ مقدمة:

تعتبر مدرسة فرانكفورت أكثر من فلسفة وأكثر من تيار فكري، بل هي بمثابة عيادة حضارية أرادت أن تقدم التشخيصات اللازمة لمجتمعات غارقة في مآهات مرضية من تضخم الرأسمال، وجماهير منسية في الاستهلاك، بل هي تلك التي أخذت على عاتقها وعد بأن تكشف مسارات مبتكرة للحرية والتحرر، فأخذ روادها يوفون بوعدها فلعل التحرر يكون في تخفيض آلة القمع الجنسي، أو لعل التحرر يكون بالقدرة الخارقة للفن، أو ربما التحرر يكون في كشف إمكانات إنسانية تواصلية، عن نزعة تعانق الكوني. فلنتساءل ما الذي جعل من رواد "مدرسة فرانكفورت" عامة وماركيوز خاصة يكشفون عن مسارات مختلفة للحرية كل هذا لماذا؟ ولصالح من؟

من المؤكد أن كل هذا لصالح الإنسان، بما أنه أسمى المخلوقات على وجه الأرض، الإنسان الذي يملك العقل ويميزه به الله عن سائر المخلوقات، الإنسان الذي يملك المعرفة، الإنسان الذي طور نفسه، ومجتمعه، وعالمه، وحضارته، لكن رغم هذا لماذا أصبح الآن مجرد أداة في يد "المجتمع الصناعي المتقدم"، كيف لإنسان يملك العقل أن يرضى بأن يمس وجوده وحرية؟ كيف لإنسان ولد بالعقل يسمح لهم أن يجعلوه عبداً ويحاولون أصلاً إلغاء العقل؟ كيف له أن يرضى بأن يسيطر عليه مثل ما فعل وسيطر على الطبيعة؟ وكيف له أن يوافق على أن يكون مثل جردان كل يوم تجرى عليه التجارب؟ من كان السبب الرئيسي في ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء بكل صمت واحترافية؟ هل التهمة توجه إلى العلم الذي قدم جواباً لكل شيء؟ أم إلى التكنولوجيا التي أصبحت اليوم تحرك كل شيء وإن توقفت يتوقف كل شيء تحركه وربما حتى الظلام يعم العالم؟ أم إلى المشروع الذي بشرت به فلسفة الأنوار وأرادت إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور والتي كان هدفها المنشود الوصول بالإنسان إلى التحرر والتقدم وتحقيق السعادة. أم توجه التهمة إلى الإنسان نفسه؟ فهل يعقل بأن الإنسان هو من أساء الاستخدام؟ أم إلى تلك اليد التي وراء المجتمع الصناعي المتقدم وتستترها وراء العقلانية؟ فكيف لإنسان يعيش في عصر التقدم العلمي والتكنولوجي أن يتجرع السم وهو يضحك؟ أيعقل أن يسلم نفسه بنفسه لقبضة المجتمع الظالم؟ إذن: ما جوهر الفلسفة التي جاء بها هربرت ماركيز كبدل لمجتمع مزق حركة أفراده وغيرها؟ بأي مجتمع ينقد وأي مجتمع يريد؟ وكيف يتم عنده إعادة بناء نظرية جديدة للمجتمع؟ وما هي شروط ومخرج استكمالها؟ وهل أصبحت المعرفة طرحاً خاسراً أم مشروعاً متجاوزاً؟ فهذه المجموعة من التساؤلات أكيد لا يتسع لها هذا البحث فما سنحاول أن نركز عليه وشرحه ولو بالقليل هو موقف ماركيز من سيطرة التقنية وسيطرة المجتمع الصناعي المتقدم على الأفراد.

ومن أهم أسباب اختيارنا هذا الموضوع أردنا أن نتعرف على الأفكار النقدية لماركيوز حول المجتمعات الصناعية الأكثر تقدماً والرغبة في اطلاعنا على أهم دراساته حول موضوع التكنولوجيا وسبب اهتمامه بها وموقفه منها وآثارها على الإنسان المعاصر خاصة بعدما أصبحت هي محرك التغيير والمعرفة وقودها. وكيف أصبح المجتمع المعاصر مهووساً بثورة التكنولوجيا أكثر مما هو مشغول بعالم الإنسان أيعقل أن يصبح الإنسان إلى هذه الدرجة مهمشاً؟ وكيف وأنه وبالرغم من كثرة المعلومات نتج مجتمع معاصر في حالة التغيير اللا مستقر والثورة الدائمة فهل هذا جنون التكنولوجيا أم ماذا؟ هل يعد هذا مثل الطوفان الذي أصبح يحرف كل ما في طريقه؟ إذن يجب أخذ الحيطة والحذر

من التدفق المتزايد للمعلومات التي أصبحت كالماء الغزير كل من أراد أن يشرب من حنفيتها جرفته المياه وزادت من غزارة تدفقها فحذار من شرب الماء من المضخة؟

وكذلك كان هدفنا من هذه الدراسة، هو الفضول في معرفة إنجازات التقنية وما وصلت إليه وخاصة مدى تأثيرها على الإنسان المعاصر، وكيف كان موقف ماركيز من الأزمة التي فرضتها التقنية على الإنسان وكذلك كان هدفنا هو واقعنا في العالم العربي -الواقع المأزوم - الذي يعيش أشكالا من السيطرة وأنواعا من التقليد الاعمى للغرب. نعم نحن نعيش حياة تقليد الغرب في كل شيء كلنا يعرف مدى تأثير الغرب على العرب ألا تعتبر هذه سيطرة؟ فماذا بقي لنا بعدما أصبحت الثقافة هي الأخرى تستورد ناهيك عن التكنولوجيا فنحن لا نملك هذه الأخرى فقط منقولة إلينا. وماذا عن واقع عالمنا الذي يكثر الحديث عن العلم والتكنولوجيا؛ ويعتبرهما أساليب حرية وتقدم ولكن في الحقيقة عكس ذلك هما أساليب قمع وتضليل. والاهم من ذلك؛ حالة العجز التي أصابت فكرنا العربي، والأوضاع التي تتأزم يوم بعد يوم مثلا الكل تحت تحدير التكنولوجيا التي نكثر الحديث عنها ومنبهرين بها وخاصة الفئة المعروفة باستخدام الهاتف المحمول؛ في كل مكان تجد أغلبهم حامل لهاتفه، الهاتف الذي أصبح آفة العصر، الهاتف الذي دمر تدميرا وأكلنا في أوقاتنا، حتى أصبح الجميع يستخدمون تطبيقات مضیعة لوقتهم تمتعهم وفي نفس الوقت تخدر وعيهم وتعزلهم وتناولهم جرعة سم تقضي فيها على إبداعهم لتجعلهم تحت رحمتها - ناهيك عن فئة الشباب التي هي مشعال عالمها العربي وأمل في إنارته مستقبلا - وهذا ما دعانا في حقيقة الأمر إلى تناول هذا الموضوع، معتمدين على منهج تحليلي نقدي كآلية مساعدة في فهم دقيق لفكر ماركيز وهدفه المنشود في تحرير الإنسان في ظل التقدم التقني وتحقيق حريته وسعادته

أما بخصوص رؤية ماركيز لهذا النوع من المجتمعات اختلفت حوله الآراء فهو أراد يرسم ملامح لمجتمع جديد كما سنرى في صلب البحث وقدم رؤية للخلاص من سيطرة المجتمع المتقدم. وكل ما كان يرغب في تحقيقه هو مجتمع المستقبل، ولكن يقر هو نفسه أنه مهما كان هو الحل فلن يكون هو ذاته الجنة الموعودة فهو سيظل مجتمعا يحتاج الى الكفاح والعمل الإيجابي والابتكار.

أما بخصوص المنهج المتبع فهو المنهج التحليلي الذي يعتبر أهم عملية من عمليات العقل الأساسية التي يعتمد عليها أي باحث والذي ساعدنا في فهم الرؤية النقدية الماركيزية لحقيقة المجتمعات الصناعية الأكثر تقدما. وساعدنا في فهم التطور الذي عرفته البشرية في جميع المجالات التقنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والذي أدى إلى الانغلاق وخلف وضع دولي راهن جعل من الإنسانية تعيش حالات من الصراع والحروب والتوتر خاصة ما نتج عن تطبيق العولمة وما آلت إليه. فهل بإمكان الفلسفة أن تلعب الدور من أجل تقليص حدة العنف وإرساء قواعد السلم؟ وهل ستوفق في رحلتها هاته؟ وهل بإمكانها أن تتصدى لهذا؟

2/مقاربة مفاهيمية: يقتصر هذا العنصر على أهم مفهومي رئيسيين في البحث وهما التقنية، وإنسان البعد الواحد.

أ/ مفهوم التقنية: **la technique** كانت تعني التقنية عند اليونان (tekhnè) وهي ما تضمن دلالة الهندسة المعمارية والطب والحضارة، وكان اللفظ يشير بالنسبة إلى كل علم من هذه العلوم إلى ما يستنبطه من قواعد إجرائية تسمح له بإنتاج أشياء متماثلة بصورة لا محدودة. فالتقنية هي المعرفة المنتجة والمبدعة، في مقابل المعرفة النظرية التي لا تغير من موضوعها شيئاً. ومع تطور العلوم الفيزيائية في القرنين السادس عشر والسابع عشر لم تعد التقنية مع ديكارت مقابلة للعلم؛ أي للمعرفة النظرية إذ أصبحت الغاية من العلم مع هذا الفيلسوف أن يجعل الإنسان سيداً على الطبيعة ومالكاً لها، وهو ما لا يتحقق إلا بالتطبيقات العلمية أي بالتقنية. ومن هنا جاء التعريف الكلاسيكي للتقنية كتطبيق للعلم، وبهذا المعنى فالتقنية هي مجموع الطرق والوسائل القائمة على المعارف العلمية، وليس فقط على معارف تجريبية التي يقع توحيها من أجل الحصول على نتيجة معينة، ولئن كانت التقنية بهذا المعنى تطبيقاً للعلم فهي تختلف عنه بوصفها تسعى إلى الإنتاج بينما يسعى العلم إلى المعرفة. (سعيد، 2004، صفحة 115)

وهناك تعبيرات شائعة تدور حول التقنية وطابعها الجوهرى الذي يميزها بمظهرين متساوقين يطلق عليهما المظهر " الأثروبولوجي " و "الأداتي" وطبقاً لهذا التصور تصبح التقنية فعلاً إنسانياً حضارياً ووسيلة من أجل غاية تنتظمان الواحدة والأخرى معا لإشباع "حاجياته" (مصدق، 2005، صفحة 98)

ب/ مفهوم إنسان البعد الواحد: **the one- dimensional man** هو مصطلح صاغه هربرت ماركيز* وقدمه كعنوان لكتابه المشهور " الإنسان ذو البعد الواحد"، ويرى ماركيز أن هناك مرضاً أصاب المجتمعات الصناعية المتقدمة بشقيها الرأسمالية والاشتراكية وهو مرض "البعد الواحد"، وانطلق من أن التكنولوجيا هي من ساعدت هذا الوباء في الانتشار لأنها طورت أشكالاً جديدة من الرقابة الاجتماعية التي سحقته الإنسانية وحرمتها من حريتها. والتي حولت الإنسان إلى حيوان منتج مستهلك بالدرجة الأولى. (بوتومور، مدرسة فرانكفورت، 2004، صفحة 171) ويصف تومبسون R. Thompson إنسان البعد الواحد، كما عرضه ماركيز " نصف أبله، حسن التغذية، ضحل في عواطفه، فقير في علاقاته الإنسانية، دمية سوقية، يسيطر عليه الخداع من ميلاده حتى وفاته. (بوتومور، مدرسة فرانكفورت، 2004، صفحة 172) فإنسان البعد الواحد باختصار هو الإنسان الذي لا يقدر ولا يملك الجرأة حتى على قول " لا " في وجه النظام القائم.

3/ سيطرة التقنية والإنسان ذو البعد الواحد:

عن أي تقنية نتحدث عن تقنية طورت المجتمع وقفزت به قفزة لم تتوقعها البشرية، أم تقنية أصبحت عقبة في وجه الإنسان ومارست فعلتها بكل صمت واحترافية، من المؤكد أن الاهتمام الزائد كان السبب الرئيسي والاستخدام السيئ للتكنولوجيا هو ذاته الذي أوصل الإنسان إلى ما هو عليه اليوم مجرد أداة، فخلق منه إنساناً بعيداً واحداً كما سماه ماركيز والذي اكتشف مرض المجتمع المتقدم، فهذا ما جعل الإنسان المعاصر يعيش أزمة اغتراب وتشويء بسبب التكنولوجيا وما حققته في جميع مناحي الحياة، وما جعل المجتمع يصاب بمرض البعد الواحد لعله التقدم التقني كما قلنا هو سببه الرئيسي لأننا نعرف حقيقة واحدة لا تتغير، بأن المجتمعات الغربية كان ههما الوحيد توفير

الحاجيات اليومية فقط وبالتالي فقد الانسان قدرته على المعارضة وحتى على مجرد إحساسه بالاغتراب وأصبح منتج مستهلك وذلك تحت شعار " أنا استهلك إذا أنا موجود" فهذا الشعار الذي أثقل كاهل ماركيز ورأى فيه كل أشكال وأنواع السيطرة قد اجتمعت.

بسم التقنية انتهكت حرية الإنسان، وحشية هي واغتراب وتشيء أفرزتهم الحضارة المعاصرة، بل وحتى هذان الأخيران كانا سببا في الواقع المأزوم؛ فلعل هذا ما جعل من الماركيزية تحتضن الإنسان المعاصر لكي تقدم له الحرية ولكي تضمد له جراحه وتخلصه من السيطرة. ولكن ما طريق الخلاص؟

ليس من السهل بلوغ طريق الخلاص، لأنها أزمة ضربت البشرية ضربة قوية قاضية، فكلنا نعرف بأنه ومن المستحيل يمكن القضاء على التقنية ربما يمكن تغيير طريقة استخدام كل من التقنية والتكنولوجيا ولكن من يستطيع أن يقف أمام المجتمع الصناعي المتقدم، مجتمع كل يوم يزيد من تطوره ويرفع من قيمته ويثبت نجاحته.

وما يزيد الأمر تعقيدا هو أن هذه البشرية اليوم تقف أمام حرب معلنة على العدو وأي عدو، عدو غير مرئي يقتل الأفراد بخدر الوعي بل جعل من البشرية تذرف الدموع في صمت، فإلى أين نوجه أصبع التهم وعلى من نعلن الحرب؟ على التقنية؟ أم على التقدم العلمي والتكنولوجي؟ أم على اليد التي تستخدمهم؟ كيف نتهم التقنية وهي اليوم أصبح لها دور كبير في تقدم المجتمعات، وساعدت الإنسان في سيطرته على الطبيعة ونزواتها و في النهوض بعجلة التقدم في جميع المجالات، كما أن العلم قدم جوابا لكل شيء والتقنية منحت الحلول لجميع مشاكلنا اليومية، أليس من خلال هذا الحماس الشديد للتقدم العلمي ومنجزاته ظهر تيار سمي بالوضعية " الوضعية التي تزعم لنفسها الحيدة في مواجهة حقائق الحياة وهي في الحقيقة تسعى إلى تجميدها بمنهج تجزيئي " (العالم، 1972، صفحة 06) وهي نفسها الوضعية التي قامت بتصعيد العلم وجعله جوهرًا، لكن و في ظل هذا الحماس الزائد للاهتمام بالعلم نسي المجتمع ولم ينتبه للسلبات التي أدت إليها التقنية وما أدى إليه العلم من سيطرة الإنسان على الإنسان وعدم التمكن من تحقيق الاستقلال الذاتي وتقرير مصير حياته، وبهذا أصبح للتقنية سيادة على الطبيعة وعلى الإنسان، وبالرغم من تحقيقها لهذا التطور كيف أضحت عقبة في طريق الإنسان وتسببت في القضاء على روحه الإبداعية بل وخطر من ذلك أصبحت كالطوفان الذي يجرف كل ما يلقاه في طريقه.

فلماذا إن البشرية اليوم في حاجة ماسة إلى علاج نافع، وإلى دواء فعال لهذا الداء المنتشر، فهل يا ترى يوجد دواء وعلاج لهذا الداء الذي يرتكب جرمته الشنعاء بكل صمت واحترافية؟ وإلى متى سيتوقف هذا الطوفان ويكف عن جرف كل ما يلقاه في طريقه؟

لقد بلغت التقنية في نظر ماركيز حدودها القصوى؛ خاصة عندما اعتبروها أنها هي معيار الحضارة المعاصرة. فالحديث عن التقنية يقود بدوره إلى الحديث عن العلم؛ والحديث عن العلم يقودنا مباشرة للحديث عن كيفية توظيف كل من التقنية والعلم في المجتمع الصناعي المتقدم، فبدلاً من تحول سيطرة الإنسان على الطبيعة حدث ما لم يحمد عقباه وهو سيطرة الإنسان على الإنسان. وهذا ما حاول ماركيز أن ينبهنا منه في كتابه "الإنسان ذو البعد" بل يحذر فيه من خطر سيطرة التقنية التي كما قلنا سارت باتجاه السيطرة على الإنسان. فيرى فلاسفة مدرسة فرانكفورت أن العقلانية التقنية والعقل الأدائي؛ أصبحا يمثلان بوجه عام الأسلوب السائد في المجتمع الصناعي المتقدم، والذي تشكل آليات علمية وتكنولوجية وفلسفية وحتى ثقافية تحركها القوى المسيطرة في ذلك المجتمع، بل إنه عقل يقال عنه منسجم مع

القوى الكلية الاستبدادية يرفض التناقض والنقد ويقبل الواقع كما هو؛ ولا يبالي ولا يتعب نفسه أصلاً يقبل السيطرة ويرفض التبعية. (الرحيم، 2010، صفحة 27) أما عن ماركيز على وجه الخصوص فإن المشكلة قد أخذت عنده بعداً أعمق. وهي ما أطلق عليها مصطلح العناد أو التحدي على حد تعبيره (obstinacy) وعلى هذا الأساس طرح سؤاله: هل نستطيع أن نحكم على مجتمع بأنه قد أحدث إشباعاً كاملاً لأعضائه وهل يمكن أن نقر أن جميع حالات الإنسان قد تم إشباعها؟ فالمجتمع التقني هو من سيجيب ويقول إنه قد حدث ذلك بالفعل وذلك خلال حرصه على تدعيم نظام الوفرة ومن ثم فإن حاجة الأفراد المتحققة هي التي تقدم المشروعية لهذا النظام. (الرحيم، 2010، صفحة 28)

وبهذا يرى ماركيز أن التقنية أداة للسيطرة وليست أداة في أيدينا؛ لأنها نجحت في فعلتها وجعلت من الإنسان مجرد مستهلك ومنتج بل وفصلته على مقاسها. كيف لا وهي من ساعدت المجتمع الصناعي المتقدم أن يجعل من الإنسان مجرد آلة، وهي من خدعت الإنسان المعاصر وجعلته منبهراً في تقدمها ومفتوناً بتكنولوجيات جديدة حتى أصبح من غير الممكن التحكم فيها وفي كينونتها، فهذا ما أكدته هيدجر في حوار له مع الصحافة فقال: بأن "التقنية في كينونتها شيء لا يستطيع الإنسان التحكم فيه". (مصدق، 2005، صفحة 100)

فالإنسان الذي تمنى يوماً ما أن تجعل منه التقنية سيّداً، أصبح عبداً للأدوات التي هو نفسه أنتجها، والتي ظن نفسه أنه هو من يملك الآلة ولكن في الواقع هي من تملكه التكنولوجية كوسيلة في يدها. فالمغزى الأساسي من عبارة الإنسان الواحد عند ماركيز هي أن التكنولوجيا في المجتمع الصناعي المتقدم، قد جعلت وسخرت لمثل هذه المجتمعات أن تحتوي بداخلها التناقضات الموجودة فيها. ولا تفصح المجال لأي كان بفضحها وكشف وجهها المقيع والمزيف؛ كما يشدد ماركيز الحذر من خطر التقنية التي سبق وأن قلنا اتجهت باتجاه إخضاع الإنسان والسيطرة عليه، فالتقنية نجحت في أن تصنع وتفصل من الإنسان ثوبا على قياسها.

لهذا يعتبر كتاب هربرت ماركيز "الإنسان ذو البعد الواحد" دليل على توجهه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية؛ ويرى فيه مرض العصر الذي أدى بالإنسان إلى الانحراف وشوه حياته وأدى إلى الانغلاق، فالإنسان ذو البعد الواحد هو باختصار سمة الحضارة الحديثة في أشد صورها تقدماً واكتمالاً. (زكريا، 1980، صفحة 40) و يعني به ماركيز بأنه صورة إنسان البلدان الصناعية المتقدمة، فركز على أن العالم أصبح يشهد تغيراً ولم يعد واحد لأنه هو ذاته لم يعد واحد، فعالم التقدم الصناعي ما هو إلا خلق عالم التخلف الاقتصادي إلى حد بعيد، (ماركيز، 1988، صفحة 05) وما حاول ماركيز انتقاده هو المجتمع المعاصر مبيناً كيف استطاع التقدم التكنولوجي والتقني بل وحتى التقدم الصناعي استغلال الإنسان المعاصر ووضع في أزمة السيطرة والحرمان من الحرية بل وحتى جعل منه مجرد أداة، وهكذا توالى الأحداث فكان لزاماً على الفلاسفة وعلى رأسهم ماركيز أن يستفسروا عن مصير الإنسانية وإلى أين يقودها هذا العصر الأمريكي وحروبه الباردة والساخنة الظاهرة والباطنة. وهذا ما ينطبق تماماً مع صرخة نيتشه التي مازالت تصدح في الآفاق: "احذروا من التقدم التكنولوجي الذي لا غاية له إلا ذاته، احذروا من حركته الجهنمية التي لا تقف عند حد، سوف يولد في المستقبل أفراداً

طبعين يعيشون كآلات، احذروا من هذه الدورة الطاحنة للمال ورأس المال والإنتاج الذي يستهلك نفسه بنفسه فالتقدم ليس غاية بحد ذاته " (مصدق، 2005، صفحة 103)

أليس الأمر كما أرادته الماركيزية محذرة الإنسانية مثلما حذرمنها نيتشه؛ والتي جعلت من نفسها عيادة تعالج وتشخص الحالات اللازمة لمجتمعات غارقة في متهات مرضية من تضخم الرأسمال ودورته الطاحنة التي حذر منها نيتشه، وأفرادا وشعوبا منسية في الاستهلاك، لذلك جاءت كل محاولات ماركيز من أجل أن تكشف وتبحث عن مسارات جديدة تقود للحرية والتحرر " فلعل التحرر يكون في تخفيض آلة القمع الجنسي، وكشف جماليات جنسية أو لعل التحرر يكون بالقدرة الخارقة للفن أو ربما التحرر يكون في الكشف عن إمكانات إنسانية تواصلية.... " (مؤلفين، 2012، صفحة 16) على العموم ومن هذا المنبر لمسارات الحرية المختلفة؛ يقدم ماركيز تكميلا للنظرية النقدية في صورتها لنقد العلم والتقنية، ويشيد مهمة للفلسفة متميزة عن غيرها بل وتتسم بكشف الزيف لانحراف المجتمعات وضياعها في غياهب الهيمنة التقنية، وعلى هذا الأساس يقول ماركيز " إن النظرية النقدية للمجتمع تتمسك أساسا بأن المهمة الوحيدة المتروكة للفلسفة هي تطوير اشد نتائج العلوم عمومية. وهي أيضا تأخذ كأساس لنظرتها إن العلم قد اظهر على نحو كاف قدرته على خدمة تطور قوى الإنتاج غير أن هذا لا يعفي النظرية النقدية من نقد دائم للأهداف والمناهج العلمية التي تدخل في اعتبارها كل موقف اجتماعي جديد " (مؤلفين، 2012، صفحة 41)

فهما حاولت النظرية النقدية عامة وماركيز خاصة هدم ونقد التقنية؛ فهما لا يريدان إلا هدفا واحدا يصلان إليه ألا وهو إصلاح العقل الغربي وإحداث تصالحه مع ذاته، وكأخما ينبهان الإنسانية بان الأزمة التي يعيشها الانسان المعاصر تزيد يوما بعد يوم كلما زادت التقنية كمالا. لأن العقل سلم نفسه إليها وتحول بنفسه إلى أداة لخدمة ما صنعه وأراد به السيطرة على الطبيعة؛ فحدث ما لم يحمد عقباه وقلبت الأمور رأسا على عقب. فلعل هذا ما جعل ماركيز يرفض الأمور التي قلبت موازينها لأنه لا يقبل إلا بما يعلوا بسمو الإنسان بوصفه كائنا عاقلا واجتماعيا ومتميزا. لهذا نقد المجتمع الصناعي المتقدم نقدا قويا ولاذعا. وعرف بعدائه الشديد للتكنولوجيا التي جعلت الإنسان مسيطر وأصبح آلة إنتاجية بالدرجة الأولى وبالتالي قضت على حرية الفرد وأصبحت العقلنة والسيطرة وجهان لعملة واحدة، بل وأصبح الإنسان المعاصر يعيش تحت رحمة المجتمع التكنولوجي؛ فهذا الأخير كان الشغل الشاغل لماركيز ومن خلاله بين لنا كيف أصبح الإنسان يبعد واحد بسبب التقنية؛ وبسبب التكنولوجيا التي يستخدمها ويسخرها لخدمته ولن تتضح لنا هذه الصورة إلا إذا تحدثنا عن المجتمع التكنولوجي المعاصر؛ لأنه علينا أن نكون على دراية بأن ماركيز يؤكد على أن المرض الذي أصاب الإنسان والمجتمع بل ولمس جميع الجوانب هو مرض البعد الواحد؛ فلعل الصورة ستتضح لنا أكثر إذا تطرقنا إلى المجتمع التكنولوجي المعاصر وكيف نظر إليه ماركيز لأنه يعتبر واحد من أولئك الذين وقفوا في وجه المجتمع المعاصر ولعل هذا المختصر المفيد يلخص كل المعاني التي يشملها هذا النوع من المجتمعات. وما يحاول ماركيز الوصول إليه ليس نفي هذا المجتمع أو الرفض التام لما وصل إلهي بل العكس من ذلك هو يحاول أن يجعل من العلم يساعد الانسان ويخدمه وبه تتحقق له الحرية والسعادة وتعوض له تلك التي الحياة التي همشت وغربت في ظل مجتمع رأسمالي برغماتي ظالم لا يهتم إلا بمصلحته. ولعل ما صرح به ماركيز في كتابه الانسان ذو البعد يوضح لنا الصورة أكثر -الصفحة 34-بقوله "

إن تحليلي مركز على ميول المجتمعات المعاصرة الأكثر تقدماً، وثمة قطاعات واسعة داخل هذه المجتمعات وخارجها ما تزال فيها هذه الميول بعيدة عن البروز وأنا لا أفعل من شيء سوى أن أسلط الضوء على هذه الميول وأقدم بعض الفرضيات".

4/ سيطرة المجتمع التكنولوجي المعاصر:

أي وباء أصاب البشرية؟

إلى أي مجتمع يقودنا الحديث؟ إلى مجتمع مزق حركة أفرادها وغربها؟ أم إلى مجتمع أضع طريقه ووضع نفسه بين الشتات والضبابية؟

سطور لا تكفي وصفحات لا تنتهي لكي نصل إلى الحقيقة التي بحث عنها ماركيز، تخط هنا وهناك محاولاً كشف الوجه الحقيقي للمجتمع التكنولوجي المعاصر، الذي كان ولا زال تحت ستار العقلانية، فبسم العقلانية الزائفة وضع لنفسه مكاناً أمام الإنسان المعاصر لكي يظن أنه مجتمع ناجح، كيف لا وهو مجتمع كل يوم يبدي نجاحته ويزيد من حدة تطوره وقيمه.

بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي، أصبح هذا المجتمع هو المركز والمحور الأساسي في العالم، فعوض أن تؤدي التكنولوجيا بالإنسان نحو التقدم والحرية، خلقت له أساليب السيطرة والقمع وكل ما يسيء به. فنقطة انطلاق المشروع الماركيزية هي الطاقة الهائلة التي بات يتمتع بها المجتمع المعاصر أو كما سميناه سابقاً المجتمع التكنولوجي أو المجتمع الصناعي المتقدم، من بين هذه الطاقة الكم الهائل من النتائج المحققة من سيطرة على الإنسان، تجاوزت من بعيد كل أشكال الهيمنة التي مارسها المجتمع في الماضي على أفرادها.

كما لا يفوتنا إنه وعلى مر العصور، شكلت السيطرة شكلاً لاعتقالاتنا أصبحت تنسب إلى أشكال علاقاتنا الإنسانية، إذا قلنا قد يكون سببها الرئيسي هو طابع العقلاني فقد نكون على صواب، ولما لا لأنه بوسع كل إنسان أن يفضحها وينتقدها ويتصدى لمعارضتها، ولكن من منا يستطيع أن يقف أمام السيطرة التي باتت في عصر التقدم التكنولوجي ترتدي ثياب العقلانية لمصلحة المجتمع الصناعي.

هذا الأخير؛ المجتمع الصناعي هو الذي طالبت النظرية النقدية الماركيزية بتجاوزه بل وحتى أنها رفضته لأنه تجاوز حدود المعقول، لكن رغم هذه المطالبة ألا يتبادر في ذهننا بأن النظرية النقدية هي الاعتقالاتية وليس هو؟؟ إذ هل من المعقول أن تطالب بتغيير مجتمع يثبت نجاحه يومياً ويملك القدرة على تنمية الإنتاج وتوفير حياة الرفاه لجميع أفرادها؟ نعم إنه من المعقول مطالبة بالتغيير لأن كل ما يحققه المجتمع الصناعي المتقدم هو ظاهر فقط والصورة الحقيقية هو برمه مجتمع لاعتقالاتي يبني نفسه بمنطق عقلاني لبلوغه ما يريد وهو ينظر من بعيد كيف يمنع التطور الحر للإنسان ومواهبه، فلا يمكن له الاستمرار إلا إذا قضى على كل الحاجات الإنسانية ومنع من الابداع والتقدم. هذا ما شبهه ماركيز في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" بذلك السلم الذي ينعم به هذا المجتمع المعاصر إذ أن هذا السلم لا يتحقق إلا بشبه الحرب. (ماركيز، 1988، صفحة 11)

... فآلية المجتمع المتقدم؛ تقود هي بدورها نحو مسار التقدم ولكن عبر تحقيق التلاحم الاجتماعي الداخلي واستبعاد كل أشكال التناقض والنفي والنقد بل وحتى التعالي، هكذا هو إذا المجتمع الأحادي لماذا؟؟ يظن أنه مادام يلبي الحاجات الفردية ويرفع المستوى المعيشي فهو المجتمع المتقدم. فماركيوز بحث وتساءل عن هاته الحاجات الفردية التي يلبيها المجتمع المتقدم، هل هي حاجات حقيقة أم كاذبة؟ فجوابه كان نعم هي كاذبة وحاجات وهمية يلبيها هو الأخير ربما بواسطة طرق متعددة من بينها الإعلانات وحتى صنع الدعاية بل وحتى وسائل الاتصال، هذه الحاجات المصنعة كانت خير وسيلة لخلق الانسان ذي البعد الواحد متكيفا داخل المجتمع الأحادي البعد؛ لهذا إن الإنسان ذو البعد الواحد هو ذلك الانسان الذي استغنى عن حريته بوهم الحرية، وهذا شبيهه بالعبد الذي يختار سيده ويوهم أنه مجرد اختياره لساتته فهو حر، ففوة المجتمع التي يملكها هي الطابع العقلاني للعقلانية خاصة بانقسامه إلى طبقات مستغلة وكيف يمويه هذا الانقسام الطبقي بظاهر التلاحم الطبقي هذا فقط مجرد أحد المظاهر الأساسية للاعقلانيته. (ماركيوز، 1988، صفحة 12)

فالمجتمع الصناعي لم يزيّف الحاجات المادية فقط، بل قفز قفزة هائلة الى الامام وخير طريق سلكه في تزييف الوعي، حتى ظن الانسان انه مريض نفسيا ان لم يمثل الى المجتمع القائم، كيف لا وقد استطاع تزييف الحاجات الفكرية أيضا ذلك لأن الفكر عدو لدود لمجتمع السيطرة، لأنه بمثابة قوة أيديولوجيا وقوة العقل النقدية، فمع هذا المجتمع أصبحت التقنية هي الأيديولوجيا، وربما حتى العقل التقني ذاته أيديولوجيا وليس استخدام التقنية أبدا، إنما التقنية ذاتها سيطرة على الانسان والطبيعة، (هابرماس، 2003، صفحة 44) كيف لا ونحن حين نتحدث عن التقنية تعنيلا أيديولوجيا التي تستعمل التكنولوجيا لغرض سلبى هذا ما يقصد به تحذير وعي الفرد وتنويمه... إذ غاب بُعد النقد والمعارضة ليسود بُعد التحفظ والامتثال، وأصبحت كل محاولة لتغيير النظام الذي يثبت قدرته بجدارة على استيعاب الفرد هي التي تخرج عن حيز المعقول. فالطابع العقلي الذي لبستها أيديولوجيا التكنولوجيا هو طابع لامعقول، لأنه لا يؤدي إلى خلق إمكانات وفضاءات جديدة لتطوير الحاجات والمواهب الإنسانية، لهذا وصف ماركيز عالم الحضارة الصناعية المتقدمة بأنه عالم كلي استبدادي يملك القدرة على تعبئة جميع الطاقات الإنسانية الجسدية والروحية وجميع القوى الاجتماعية (ماركيوز، 1988، صفحة 13)

وبما أن هذا المجتمع يلبي استطاع أن يزيّف الحاجات بأنواعها، فهل يحدث إشباعا لأفراد؟ من خلال هذا السؤال جاء ماركيز بفكرة التحدي أو العناد على حد تعبيره، وأخذت عنده بعدا عميقا والسؤال الأساسي عنده كما سبق وأن طرحناه هو: هل نستطيع فعلا أن نحكم على مجتمع بأنه قد أحدث إشباعا كاملا لأعضائه؟ وهل يمكن أن نقرأ أن جميع الحالات الإنسانية قدمت اشباعا بالفعل؟ إن المجتمع التقني يجيب قائلا: أنه قد أحدث ذلك بالفعل وذلك من خلال حرصه على تدعيم نظام الوفرة ومن ثم فإن حاجة الأفراد المتحققة هي التي تقدم المشروعية لهذا النظام. لهذا كتب ماركيز يقول: "إن العناد obstinacy هو خاصية أصلية في الفكر الفلسفي، ولكي تكون عنيدا فإن ذلك يعني رفض المصالحة السهلة مع الواقع" (الرحيم، 2010، صفحة 28) لذلك إن ماركيز يعني بهذا أنه يجب أن تكون المعارضة ليس فقط لإخفاقات ونقائص هذا النظام بل لنجاحات القوى أيضا.

فما يريد ماركيز أن يوضحه لنا كيف استطاع هذا المجتمع التكنولوجي أن يلعب على عدة جوانب، لم يكتف فقط بالإنسان بل استطاع أن يرغم الآلة بأن تلعب دورا، وارغامه للطبقة العاملة واندماجها في النظام القائم، حتى أنه استطاع أن يجعل من الثقافة بأن تزود الفرد بضمير مرتاح أي البعد الواحد، وكيف أصبحت هي نفسها بضاعة، وكيف جعل من الجنس يصبح هو الآخر أحادي الجانب لا

لشيء سوى حماية ذلك المجتمع، وخاصة الهدف الأول لعقلانية هذا المجتمع تقليص مجال الفرد الداخلي، ولا يكتف بهذا فقط يمتد التقليص إلى عالم اللغة إلى عالم التعبير والاتصال الانساني وتصبح هي الأخرى أحادية البعد؛ خير دليل ما يصنعه التلفزيون والإذاعة والصحافة.... أفلا يكفي كل هذا لكشف وفضح مثل هكذا مجتمع الذي لم يتوقف ولن يتوقف عن انتشاره سمه فيلما متى يتوفر الدواء لحقنه ويكف السم عن الانتشار؟

ما يعجبنا في ماركيز هو أنه كان صريح العبارة مع نفسه ومع كل من اتهمه بالمتناقض والمفكر الرجعي، عندما حاول وغاص في البحث عن الدواء الذي يعالج هذا الداء الذي جعل البشرية تعيش في حرب مع عدو لا يظهر على حقيقته بل مقنع، متلبس ومختفي تحت ثوب العقلانية ليخدع الانسان، الانسان الذي يملك الضمير ويملك العقل والفطرة الانسان الذي هو من يملك الحل، فالحل بيده إما عليه أن يغير في طريقة استخدامه للتكنولوجي وإما أن يرضى لنفسه أن يبقى محكوما في قفص مثله مثل فئران تجرى عليه التجربة كل يوم، أفلا يكفيه أنه أصبح مجرد أداة في يد المجتمع التكنولوجي يصنع منه ما يشاء.

فكل ما أراداه هذا المفكر كان من أجل تشييد مهمة متميزة خاصة للفلسفة اليوم، تتسم بكشف الزيف وتوجيه الانسان بسبب انحراف هذه المجتمعات المتقدمة وضياها بين مآهات التشيء والاغتراب والسيطرة. وخاصة الهيمنة التقنية التي أخذت وجها حسب ماركيز سياسيا وأصبحت بذلك هي العبودية ذاتها وتحولت من محررة للإنسان إلى طريقة لتحويله إلى شيء وأداة وهي بذلك تشكل عقبة في سبيل التحرر. (مؤلفين، 2012، صفحة 42) ولعل ما سيزيد الأمر وضوحا هو ما سنتحدث عنه فيما بعد حول مسألة الحرية الانسانية والواقع التكنولوجي.

5_المشروع الماركيزي بين الواقع التكنولوجي وكارثة التحرر الإنساني:

أي مجتمع يريده ماركيز أن يتحقق؟ أليس العالم الغربي قد وصل إلى درجة التقدم العلمي والتكنولوجي، أفلا يمكن أن نطلق عليهم أنهم وصلوا لمجتمع ما بعد التكنولوجي؟

أليس ماركيز بالفيلسوف الذي حمل على عاتقه مسؤولية الدفاع عن الإنسانية، ومن ناحية أخرى نموذج للعالم الفلسفي الذي أراد ان يدافع عن المعرفة لتحقيق التقدم العلمي، وإنسانيته كمحب للحكمة؟

فسرعان ما نتحدث عن قيمة التقنية في حياة الانسان فإننا من المؤكد أن نتفق بأنها قدمت إنجازات عظيمة وإمكانات استطعنا بواسطتها تخطي الصعوبات التي واجهتنا في حياتنا، بل كل انسان بعدما أصابته الدهشة والحيرة وحتى الجهل خاصة صراعاته القديمة وهو يحاول فهم طبيعته استطاع بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي ان يتكيف معها، وحتى انه ابتكر وسائل وأدوات تلبي حاجاته، ولكن في ظل هذا الاهتمام الزائد نسي الانسان بنفسه عن أنه روح مدعه بل ظل يفكر فقط في ما يصنعه لتسهيل حياته، حتى وقع في سيطرة الانسان على

الانسان وبالتالي خرج عن قانون ما أراد به من سيطرة على الطبيعة ، لأنه كان مهووسا فقط بالجانب الاقتصادي وتوفير الإنتاج، بل وغلبت على نفسه المادة أكثر من روحه الإنسانية وما ينظرها وإلى أين ستصل.

أيعقل من ذات بشرية أن يغيب عنها ماذا سيحصل في المستقبل؟

ليس بمقدور العقل الذي اكتشف الطبيعة وفهم قوانينها وأنتج الأدوات وسخرها لخدمته، أن يستخدم العلم والمعرفة وفق أخلاقهما لأن العلم جاء ليسعد الانسان لا لتعاسته والسيطرة عليه؟

بما أن ماركيز انشغل في أغلب اعماله عن مسألة الحرية؛ ومثل الفيلسوف الذي يحمل المصباح ويبحث عن الحقيقة من أجل تحرير الانسان ومن أجل بناء مجتمع جديد. فيلسوف لم يفقد الأمل في أن يدخل النظام الرأسمالي تعديلات على بنيته وفلسفته، ويفتح فرصة الاستمتاع بثروات العالم للجميع، ولأن الإنسانية قد بلغت اليوم درجة كبيرة من التقدم التقني، أليس بإمكانها أن تبني عالما يسوده السلم؟ وأليس بإمكانها أن تقضي على الاستغلال؟ لذلك فما يبقى لنا إلا ان نتساءل: كيف يتحقق التحرر عند ماركيز؟ وما طريق الخلاص من عبودية التكنولوجيا عنده؟

التكنولوجيا هي أداة تحكم وسيطرة وهي من ولدت الأدوات، ومن جهة أخرى يعتبرها هي من تحرر الانسان فكيف ذلك؟ وكأنه يقول لنا أن السم لا يعالج إلا بالسم أهذا صحيح؟ وإن كان هذا صحيح كيف يكون مصيرنا فيما بعد؟ أولا علينا ان نعرف أن التكنولوجيا عند ماركيز هي عنده عبارة عن علم تحويل الأشياء أي أشياء الطبيعة إلى أدوات مروضة، مسيطر عليها بهدف استغلالها لأغراض اجتماعية وحضارية، وكذلك يعتبرها فن غزو الطبيعة والتغلب على مقاومتها الخرساء فكان دورها تقديمي لا رجعي، لكن عندما أصبحت هي الشكل العالمي للإنتاج المادي بل قوة العصر فمن المؤكد أم المجتمع القمعي يستغل هذه الفرصة التي لا تعوض، فأصبح منطق التكنولوجيا منطق سيطرة الانسان الطبيعة وحتى منطقها يحدد العلاقات الاجتماعية وعلاقة الانسان بالإنسان، فحدث ما لم يحمد عقباه، بل وتم الغرق في مضختها بعدما أراد الانسان أن يشرب منها فلو كان حذرا لعرف ان ماء المضخة غزير لما غرق، فبدلا من أن تكون قوة تحررية أصبحت عقبة في وجه التحرر وحولت الانسان الغارق في مضختها إلى مجرد أدوات، وها هو الانسان يقف مكتوف الأيدي لأنه سمح بذلك فأكيد ستعاد عليه وهو في خط القبول والمشكل كله يكمن في أنه تناسى أن السيطرة على شعب من الآلات والأدوات هي سيطرة عليه أيضا لأن الواقع التكنولوجي اليوم هو واقع استعباد الانسان وتشويهه وتحويله إلى أداة. (ماركيز، 1988، صفحة 18)

والمشكل كله يكمن في تناسي أن السيطرة على شعب من الآلات والأدوات هي أيضا سيطرة، لأن الواقع التكنولوجي الراهن هو واقع استعباد الانسان وتشويهه وتحويله إلى أداة.

لهذا جاءت العقلانية الجديدة تحمل في طياتها عقلانية الانسان المتحرر من شتى أشكال السيطرة وبعبارة أخرى ان الانسان لن يتحرر من التكنولوجيا الى بواسطة التكنولوجيا نفسها وعن طريق تحرير التكنولوجيا كيف ذلك؟ تناقض لا يمكن حله إلا إذا فهمنا أن التكنولوجيا

عند ماركيز هي سياسة قبل ان تكون شيء آخر، أي القبلية التكنولوجية هي قبلية سياسية، لأن منطقها الأول هو منطق السيطرة والسياسة، سياسية لأنها تخدم سياسة القوى الاجتماعية المسيطرة في الوقت الراهن.

ومن البديهي أنه مادامت التكنولوجيا قائمة على منطق السيطرة والاضطهاد فإن تحرر الانسان لا يمكن أن يكون نتيجة عفوية للتقدم التقني في حد ذاته، ولا يمكن أن يكون التحرر على يد غبي، بل بحدوث أولا من انقلاب سياسي على وجه التحديد، فمثل هذا الانقلاب هو وحده يستطيع أن يحرر التكنولوجيا من خضوعها لسياسة القوى المسيطرة التي تستخدمها بدورها كأداة سياسية كما أن الانقلاب هو وحده الذي يتيح لمنطق السيطرة والاضطهاد في التكنولوجيا أن يتحول وأن يدخل في مرحلة جديدة مرحلة السيطرة على القوى الغاشمة اللامقهورة في الطبيعة والمجتمع لا السيطرة على الانسان الذي يجب أن يكون حرا كما هو الحال اليوم (ماركيز، 1988، صفحة 208)

لأن حال اليوم بات فيه الانقلاب السياسي ضروريا أكثر من أي وقت مضى، ومن وجهة نظر تطور التكنولوجيا وتحررها على وجه التحديد فقد بلغت الحضارة الصناعية تلك الدرجة من التطور التي ما عاد ممكنا معها أن يتجاهلها العلم؛ ومن المستحيل أن تستعيد مثل هذه المشكلات المتعلقة بتحرر الانسان مكانتها كمشكلات تقنية داخل المجتمع المعاصر الذي وصل إلى أبعد الحدود نطاق التكنولوجيا، إلا إذا تحقق أولا الانقلاب السياسي الذي يضع حد سيطرة القوة الاجتماعية الغاشمة التي تقف كأداة أمام تبني المشروع العلمي والتكنولوجي للعلل الغائية، للهدف النهائي الذي هو كما قلنا تحرر الانسان ولكن السؤال الذي يلوج في الأفق من هو عامل هذا الانقلاب السياسي؟؟

هنا بالتحديد يبرز وجه ماركيز المتشائم والمنفصل عن النظرية الماركسية فماركيز لا يكتف بأن يعلن أن الطبقة العاملة لم تعد عامل التغيير الاجتماعي، بل يضيف أيضا بأن هذا العامل لا وجود له في المجتمع المعاصر، وبهذا اختلف ماركيز عن ماركس وظهر تشاؤمية واضحة إزاء ما جاء به ماركس أي أن هذا الأخير كان متأكد أن الصراع الطبقي والثورة حول ملكية وسائل الإنتاج ستقوم بين الطبقة البورجوازية والطبقة العمالية وكان يشدد التصريح بحتمية الثورة التي ستقودها البروليتاريا. أما فيلسوفنا ماركيز كما قلنا فأكد أنه تم خداع البروليتاريا بفضل الإمكانيات التي حققتها الرأسمالية وهذا ما أدى إلى تعطيل الثورة للطبقة العاملة بسبب اندماجها وخداعها (مؤلفين، 2012، صفحة 118)

رغم اقتناع ماركيز بأن البورجوازية والبروليتاريا ما تزالان إلى اليوم الطبقتين الرئيسيتين في العالم الرأسمالي، لكن مع الأسف هذا الأخير شوه بنيتهما ووظيفتهما. فماركيز على العموم وبالرغم من اختلافه عن ماركس فهذا لا يعني أنه يرفض النظرية النقدية الكبرى بل يلاحظ معها بالفعل أن اللاعقلانية في المجتمع المعاصر لا تكف عن النمو وأن الإنتاجية تنقلص بفعل التبذير وأن العدوانية تزداد بروزا. وأن الاستغلال يتفاقم وأن الإنسانية تتجرد من كل ما هو إنساني ويلاحظ أيضا أن هذه الوقائع كلها تتطلب انقلابا تاريخيا عاجلا ولكن المشكل هو عامل هذا الانقلاب لم يعد موجودا وبذلك تفقد النظرية النقدية قدرتها على أن تكون إيجابية وعلى أن تقدم حلولاً.

ما الحل إذن؟

على الرغم من إيمان ماركيز أن طريق هذا الحل مسدود وخاصة في الوقت الراهن، إلا أنه قد اهتدى إلى قوى معينة في المجتمع المعاصر، ومن جهة أخرى نظر إلى أن القوى الاجتماعية القادرة على أن تكون النفي للمجتمع القائم وإذا كان ثمة أمل فإنه معلق على القوى التي لم يتمكن المجتمع القائم من دمجها به وهي قوى جديدة للرفض، والتي تمثلت : بالمهمشين والعاطلين عن العمل والطلبة والشباب اللامنتمين، والمنبوذين على مختلف أنواعهم والطبقات والعروق والألوان الأخرى، (خاصة ما تعلق بفئة الطلبة لأنه من المعروف هو أستاذ في الفلسفة وكانت محاضراته تؤثر فيهم وبهم اشتهر في الآونة الأخيرة). ولكن هذه القوى بدائية وقد يختلف أولا حصارها للحضارة المعاصرة عن حصار المد البربري للحضارة الغابرة والاساس في كلام ماركيز أن التغير ضروري ويضيق في الوقت نفسه أنه لا يكفي أن نفهم أن التغير ضروري حتى يصبح ممكنا حقا. (مؤلفين، 2012، صفحة 119)

كما سبق القول؛ بأن الفهم ضرورة التغير بل شرط لازم ولكن غير كاف للتغير فعلا، وهنا نعود لنفس خلاصة بأن طريق التغير مسدود في الوقت الراهن ومن حق كل قارئ أن يطرح سؤالاً الذي هو نفسه نقطة الانطلاق: أين تقف مساهمة ماركيز؟ هل هي داخل معسكر أيديولوجي الطبقة العاملة أم خارجه؟

هنا وبالتحديد الإجابة غير ممكنة إلا إذا حددنا أيضا نقطة الانطلاق؛ وتمثل بالتحديد هذه النقطة من ملاحظة بأن الأيديولوجيا الطبقة العاملة تواجه اليوم أزمة حادة في البلدان الغربية المتقدمة صناعيا، والدوغمائي المكابر هو وحده الذي يستطيع أن ينفي وجود الأزمة أن يؤكد أن كل شيء على أحسن ما يمكن أن يكون. وحتى طريق الثورة ليس مسدودا في البلدان الغربية المتقدمة صناعيا، بل هي أيضا تزداد انسدادا ويبدو أكثر فأكثر لا معقولا ولا واقعا. وما دما نفترض أن طريق الثورة هو طريق الطبقة العاملة فإننا نستطيع بكل اطمئنان أن نؤكد أن مساهمة نظرية ماركيز تسلط المزيد من الضوء على تظاهرات ذلك الانسان على عوامله لا يمكن تجرئها بتهمة الوقوف خارج المعسكر أيديولوجي الطبقة العاملة بل نستطيع أن نؤكد باطمئنان أيضا أن أيديولوجيا الطبقة العاملة ستقف خارج معسكر الثورة بالذات وستزداد عنه إذا لم تحاول مخلصه أن تدمج بها كل المساهمات النظرية التي تعمل على تقريب المسافة التي لا تبني تزداد بعدا بين الثورة وأيديولوجيتها.

والنظرية الماركسية لن تعود تلك النظرية النقدية الكبرى إذا لم تتمثل وتدمج بها كل أشكال النقد الموجهة إلى المجتمع القائم حتى وإن كانت منطلقات هذا النقد غير ماركسية، وبمقدار ما تمثل مصطلحات ماركيز الأساسية مصطلحات نقدية وجديدة فإنها لن تكتسب فعاليتها كاملة إلا إذا احتلت مكانها في صلب النظرية النقدية الكبرى من المصطلحات (المجتمع الأحادي البعد، الطابع العقلاني للاعقلانية) فإذا لم تبادر النظرية بتمثيل المصطلحات فإنها ستبدو ناقصة غير كلية.

ومن الواضح أن ماركيز عندما يتكلم عن المجتمعات الصناعية المتقدمة فإنه يقصد مجتمعات السيطرة الكلية التي تملك القدرة على التحدي ومواجهة أي معارضة تقف في الطريق، وهي كل من المجتمعات الرأسمالية والالارأسمالية معا، ويرى أن البورجوازية والبروليتاريا ما تزالان إلى اليوم الطبقتين الرئيسيتين في العالم الرأسمالي كما سبق وأن ذكرنا، ولا ننكر أن أحادية البعد قد تكون إحدى صفات الدول الاشتراكية في واقعها الراهن وربما هذا مظهر مؤقت ومع نتيجة الماضي أكثر من الحاضر هذه المجتمعات الاشتراكية تتقدم الآن نحو ثنائية البعد بعد أن

تعثرت في مرحلة أحادية البعد عكس المجتمعات الرأسمالية، التي تتقدم بطرد الثنائية إلى الأحادية وهي في حد ذاتها من أحالت إلى "إنسان ذو بعد واحد" كشبح مخيف يعاني منه الانسان المعاصر.

هذا الأخير كلنا نعرف بأنه من أهم كتب وأعمال ماركيز، وهو المصدر الرئيسي ونقطة انطلاق الكثير من الرحلات الفكرية خاصة عندما تحدث فيه عن النظام الاجتماعي السائد كما ذكرنا سابقا، ونعيد بأن السمة الرئيسية له هي العقلانية أي استخدام العقل في تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وبها اتخذت العقلانية أشكالا من السيطرة، ومع ازدياد هذه العقلانية في السيطرة خاصة الاقتصادية ازدادت اللاعقلانية في الوضع الاجتماعي، وكما قلنا ما جعل من هذه العقلانية المسيطرة تستمر هو ما حققه العلم والتكنولوجيا وبهما استطاعت الاستمرار. (العالم، 1972، صفحة 70)

باختصار، هذه هي الصورة التي قدمها ماركيز عن المجتمع الأمريكي وبشاعة نظامه، ولا ننسى بأن هذا الأخير يملك الكثير من الوسائل لمواصلة حياته وعدوانيته واستغلاله بل وحتى القدرة الكاملة بفضل قوته على عدم مطالبته بالتغيير فكيف يمكن الاحتجاج عليه؟ ولعل خطر الصورة بصفة عامة التي قدمها ماركيز، تفضي إلى طريق مسدود رغم ما تزعمه لنفسها من دعوة للتحرر والرفض والثورة بل حتى تكاد تحجب كل إمكانيات الصراع والتناقض والتغيير.

ماركيز لا يفقد الأمل بل يقف صامدا ويأتي بالبدل عن الثورة بل ويلمس نهاية للتحرر في الفن الذي يراه فيه صورة عن واقع المجتمع الحر بل ويؤكد على أن الثورة والفن يلتقيان من أجل تغيير العالم ومن أجل التحرر وبذلك " الثورة تعتبر جوهر الفن " (مؤلفين، 2012، صفحة 159)

ما يفكر فيه ماركيز للخروج من الضياع في أورة التقنية هو البعد الجمالي والبعد الفني فهو البعد القادر على إعادة التوازن، ورد الاعتبار للذاتية فالفن يسمح بالتعبير عن الذاتية التي قضت عليها السيطرة وشوحتها التقنية. فهو بإمكانه أن يخرج بالذات وينتقل بها إلى بعد آخر، وبإمكانه أن يسحب الفرد من شبكة العلاقات القائمة على السيطرة في الواقع القائم وهو الأداة التي يسترجع بها الفرد استقلاله الذاتي في وسط عالم التقنية.

ففيه تكمن حضارة متكاملة الأبعاد تحل محل حضارة البعد الواحد الجمع بين المعرفة والجمال والأخلاق. ورد الاعتبار للذات وانفتاحها. فاعتماد ماركيز على البعد الخيالي الذي تم قمعه في الرأسمالية والتقنية وما أنتجه العقل الأداتي وحتى أنه لم يسمح لسلطة الخيال لأن تصبح عملية، وعملية هو أنه بإمكانه خلق لأخلاقيات جديدة ونظام جديد عن الحرية. ويرى ماركيز أن الاحتجاجات السياسية الراهنة ما هي إلا ضرب من ضروب الخيال والتحرر التي تشكل بعدا جماليا وتخلق حساسية جديدة. (ماركيز، نحو ثورة جديدة، 1971، صفحة 53)

وأخيرا ما يؤكد عليه ماركيز هو أن السمة الأساسية التي ستكون في المجتمع المتحرر، هي التضامن لأنه وحده الكفيل في خلق الانسجام بين العلاقات خاصة فيما يخص العمل وغاياته، وفيه يستطيع الانسان أن يعبر عن انسجامه الحقيقي بين حاجاته وحاجات مجتمعه وهدف كل منهما، وذلك ما سيقود نحو خلق مفهوما جديدا للحرية من خلال شعور المرء بأنه حر والاستقلال، فما تنتجه

العلاقات هو ما يريده تماما لأنه خاضع لمعيار التضامن والخدمة الاجتماعي، فالتضامن يهمن على تهئية مجال الضرورة وتنمية مجال الحرية. (ماركيز، نحو ثورة جديدة، 1971، صفحة 142)

ولكن وبالرغم من هذه الحلول التي اقترحها ماركيز والتي تنوعت من بعد فني وجمالي وتضامن إلا أن هناك من يرى أنه بقي متشائم لأنه لم يستطع أن يحقق هذا على أرض الواقع خاصة في ظل ما يحدث الآن في العالم من تطورات، ولكن لا ننسى البصمة التي تركها وهي الحركة الطلابية والتي يقال أنه الفضل كله يعود إليه، ففكر ماركيز لم يكن بالسطحي وبالرغم من تحقيقه على أرض الواقع إلا أن حاول أن يجد الحلول والبدائل التي كان سببها التقدم العلمي والتكنولوجي

ومن هذا كله كانت محاولة ماركيز ومدرسة فرانكفورت عامة بجميع روادها؛ أن تبين كيف أصبح العقل تقني ومتميز وعرفي خاضع للتقنية، فعمل جل فلاسفتها على فك الحصار الذي أصبح يفرضه المجتمع المعاصر والذي يطلق عليه في الآونة الأخيرة مجتمع المعرفة والذي هو مجتمع يصف حالة العالم اليوم وكيف أصبح كل شيء تحركة المعرفة والتقدم التكنولوجي خاصة الأنساق المغلقة التي قد يخلفها، فأهمية النظرية النقدية الماركيزية الآن هو أنه هل أصبح بإمكانها أن تلعب الدور من أجل تقليص حدة العنف وإرساء قواعد السلم خاصة في ظل التطور الذي عرفه العالم وما نتج عن تطبيق العولمة وما آلت إليه؟

فهو كغيره تيقن أن صناعة المعرفة هي وراء ما يحدث الآن. و المعرفة الكامنة وراء هذه المجتمعات فصناعة المعرفة هي المحرك الأول من هيمنة اقتصادية وسياسية وعسكرية وحروب فيكمين وراء كل هذا مجتمعات المعرفة وصناعة المعرفة. وبالرغم من إنتاج المعارف وبكثرة فستظل معطلة القيمة ما لم تستطع تحقيق التداول والتواصل بين البشر.

لهذا كما رأينا من قبل كيف رفض ماركيز المجتمع القمعي وأقام ثورة عليه، وكذلك حاول جاهدا كبح جماح سيطرة المجتمع الصناعي المتقدم خاصة وأنه مجتمع قائم على الإقصاء والاستبعاد ، وعلى هذا الأساس يعد كتابه الإنسان ذو البعد الواحد محاولة فريدة من نوعها والذي سعى فيه إلى الكشف عن الشبكة الكثيفة والمعقدة من الهيمنة الرسمية المؤسسية التي تهدد مسار التاريخ وتتحكم فيه. كما أننا وفي نفس السياق نجد هابرماس والذي يقترح التواصل كبديل للأداتية على إقامة حوار مكثف مع نتائج التحديث التي أشار إليها ماركيز ، وعليه جعل التقدم التقني والمعرفة في خدمة الإنسان ومن ثم يتحقق التواصل والتخاطب بين الناس وترتبط المعرفة بالعلم وبهذا يكون التواصل أساسا لكل تفكير عقلي يقوم على نسق الاتصال بديلا عن نسق الانعزال، وبالنسبة إلى هذه الإضافات الأخيرة أكيد لا تتسع لها هذه الدراسة فما أدرنا توضيحه ولو بالقليل هو كيف تصدى ماركيز لمجتمع ظالم ووقف في وجهه و كيف حضن الإنسانية واستطاع أن يضمم جراحها في أصعب أوقاتها وفي أصعب حالاتها فماذا بقي للإنسان بعدما همش وطمس وأصبح أسيرا مكبلا كل يوم تجرى عليه تجارب جديدة ألا هذا الحد يستهان بالروح الإنسانية ؟

6/ خاتمة البحث:

لا بد لنا أن نقول في الأخير، أن هذه التفصيلات التي تم عرضها لا تتسع لها هذه الدراسة، فنحن من خلال هذه الأسطر لم نخط بالموضوع بكل جوانبه ولم نختراع أفكار لم يسبق إليها غيرنا ممن كتب في الموضوع، وإنما هي وحي من وضع الحدث للوضع المأزوم الذي عايشه ماركيز وحتى نحن نعيشه اليوم؛ فالوضع الذي أصبح تحت سياسة التكنولوجيا والتقدم العلمي وضع كارثي و أن الانسان بسبب التقنية لا يعرف ماذا ينتظره مستقبلا، لهذا فلنساءل مثل ما تسأل المفكر لابرنتير " لقد علمتنا التقنية استعمال الأشياء، لكن متى سنتعلم فيها نستعمل أنفسنا؟ " (سعيد، 2004، صفحة 17)

فمن خلال السؤال الأخير كيف نتعلم من التقنية استخدام أنفسنا؟ هو المهمة الرئيسية التي أخذها ماركيز على عاتقه؛ والتي أراد أن يضع بها النقاط على الحروف هي كيف يتم تحويل التكنولوجيا لخدمة إنسانية الانسان، لخدمة الروح الإنسانية في عالم غلبت فيه المادة. أما حول مسألة التقنية فهو اعتبرها ماركيز كوسيلة سيطرة على الانسان المعاصر داخل المجتمع الصناعي المتقدم، وما الانسان ذو البعد الواحد إلا أداة لخدمة مشروع السيطرة وخدمة للإنتاج والاستهلاك، وبلغه أخرى انسان غير قادر على الثورة والتغيير سلم ذاته بذاته للتقنية، ولهذا كلما زادت التقنية كمالات ستزيد أزمة الانسان المعاصر يوما بعد يوم.

فماركيز ليس عدو للتقنية فهو مثله مثل أستاذه هيدجر الذي يقر لأنه ليس ضد التقنية، ولم يتحدث لأبدا ضدها بل كل اهتمامه توجه إلى ما ينجز اليوم تحت اسم الفيزياء البيولوجية بحيث يصير في وسعنا أن نصنع الانسان بالذات نصنع عضويته كيف ما نشاء، لذلك فما وصلت إليه التقنية اليوم من إمكانيات هي محل اهتمام بالغ لذلك يجب فهم ماهية التقنية جيدا ولا يمكن فهمها انطلاقا من التحليل الماركسي ولا يمكن فهم التقنية والعالم التقني ومقاومته مدمنا مستغرقين فلسفيا في البحث عن علاقة الذات بالموضوع وهذا موضوع آخر لا يمكن التطرق اليه والمرور عليه على عجلة بل بالعودة إلى الحلول التي قدمها هيدجر. (مهيل، 2001، صفحة 221)

فالحل الذي طرحه ماركيز هو التكنولوجيا نفسها، واعتبرها هي الوسيلة وهي وحدها الكفيلة التي تحرر الإنسانية من الفكر البدائي، وما دعا إليه هو عدم التنازل أو التخلي عن التقدم التكنولوجي، بل نقد لما نتج عنهما ورفض التقدم الذي وصل اليه النظام الرأسمالي الذي فرض السيطرة على العقول البشرية.

وما يفترضه صاحب المشروع الماركيزي هو وجود مستوى عال من التقدم التكنولوجي، ودعا إلى البحث عن حضارة جديدة تستوعب القديمة في داخلها دون أن تلغيها، وبعبارة أخرى أن الانسان لن يتحرر من التكنولوجيا إلا بواسطة التكنولوجيا وعن طريق التكنولوجيا نفسها.

ما يثير حيرتنا وتساؤلنا، هو اننا نجد هذا الفيلسوف يقف موقف آخر تجاه العقلانية التكنولوجية بحيث يعتبرها هي من تحرر الانسان وتخلصه من السيطرة، وأن هذا التحرر لا يتحقق إلا على الاستخدام الزائد للمعرفة العلمية والتكنولوجية في جميع جوانب حياتنا اليومية.

فنحن إن صح القول أمام تناقض من جهة يعتبر دما كانت التكنولوجيا هي سبب ما يعيشه الانسان المعاصر فماذا إذا زادت أكثر فأكثر؟ فهل يفقد الانسان حتى وظائفه البيولوجية ويصبح بمقدور الآلة الإنجاب مثلاً؟

إذا كيف نقبل بماركيز وهو لم يأت بالجديد الذي سيأخذ مكان الحضارة الصناعية وطبقه على أرض الواقع؟

ونحن نعلم ان العلم والتقنية والايديولوجيا هم من ولدوا الجريمة وما زولوا يرتكبونها بأحدث الوسائل ويتفننون في صنع الجريمة وقتل الضمير. وحتى وإن طالبنا بعدم التكنولوجيا وانتهاءها فهل هذا في صالحنا؟ ونحن نعلم أن كل شيء هي من تحركه فهل سيعم العالم الظلام؟ هل يتوقف كل ما تحركه؟ إذا لا نعلم ماذا ينتظرنا بعد؟ ولا نعلم إلى متى سيتوقف هذا السم من الانتشار؟ وإلى متى ستنتهي الحرب المعلنة التي وقفت عليها البشرية مع عدو جعلها تذرف بدل الدموع دماً فمتى ستتحقق للإنسان الحرية واستقلالته ويرفع رايته ويعيش حراً مستقلاً؟

Bibliographie

- الرحيم، ح. م. (2010). *الفن والسياسة في فلسفة هيربرت ماركيز*. بيروت: التنوير للطباعة والنشر.
- العالم، م. أ. (1972). *ماركيز وفلسفة الطريق المسدود*. بيروت: منشورات دار الآداب.
- بوتومور، ت. (2004). *مدرسة فرانكفورت*. س. هجرس (Trad.). بيروت: دار أويا للطباعة والنشر.
- بوتومور، ت. (2004). *مدرسة فرانكفورت*. س. هجرس (Trad.). بيروت: دار أويا للطباعة والنشر.
- زكريا، ف. (1980). *هيربرت ماركيز*. المملكة المتحدة: مؤسسة الهنداوي.
- سعيد، ج. أ. (2004). *معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية*. تونس: دار الجنوب للنشر.
- ماركيز، ه. (1971). *نحو ثورة جديدة*. ع. أ. شرارة (Trad.). بيروت: دار العودة.
- ماركيز، ه. (1988). *الانسان ذو البعد الواحد*. بيروت: منشورات دار الآداب.
- مصدق، ح. (2005). *يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية*. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- مهيبيل، ع. (2001). *من النسق إلى الذات، قراءات في الفكر الغربي المعاصر*. منشورات الاختلاف.
- مؤلفين، م. (2012). *جدل التحرر والتواصل والاعتراف*. لبنان: دار الوافد الثقافية.
- هابرماس، ي. (2003). *العلم والتقنية كأيديولوجيا*. ح. صقر (Trad.). ألمانيا: منشورات الجمل.